حول رسالة مجلة الإسلام والتصوف :

مكانة التصوف وأثره
فى تطورات الحياة الإسلامية

— ٢ —

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

قلنا فى مقالنا السابق أن الفهم الجذرى . لرسالة التصوف الإسلامى . يتطور اليوم وتتسع آفاقه . وتمتد مناهجه الإيمانية والتربوية والإجتماعية ، إلى عمق أبعد من مدلوله العام لدى الذين قبعوا داخل حرفيات وشكليات جدلية ، لبعض صور التصوف فى عصور الرجعية .

ومن هنا نصبح أحوج ما نكون إلى تحديد معنى التصوف ، وما تشتمل عليه رسالته ، وما يستهدفه منهجه ، وفوق هذا كله ، موقفه من الحضارة وصلته بها ، وأثره الإيجابى فى تطورات الحياة الإسلامية ومثلها وانطباعاتها .

ورسالتنا فى مجلة « الإسلام والتصوف » التى تقود هذه الحركة الصوفية المتطورة ، هى تحطيم الأسوار المصطنعة التى أقامتها عصور الضعف والتخلف والرجعية حول التصوف لتعزله عن واقع الحياة ، ولتحول بينه وبين رسالته الكبرى التى صنعت كل القوى الروحية التى كانت رمزا وشعاراً لخير أمة أخرجت للناس .

والتى صاغت القوى المادية الإسلامية ، يوم كان الإسلام وحده الذى يكتب التاريخ ، ويرسم أهداف الحياة .

ورسالتنا بعد تحطيم هذه الأسوار الضيقة المصطنعة هى تجلية المنهج الصوفى ، كمنهج شامل لكل نشاط حيوى فى الحياة ، تجليته كمنهج يحتضن القوى الروحية ويعمقها ويزكيها ، ويفتح آفاقها ويطلقها طاهرة مشرقة ، تجعل من الإنسان ضميراً حيا ؛ وقلبا زكياً ، وروحا عابدا ، وعزما صانعاً ، وخلقاً ربانياً مثالياً ، يمشى على صراط مستقيم

يبشر بكلمات الله المضيئة ، ويعلم الإنسانية أن الحياة ، إخاء وتعاون وتكافل وسلام ورحمة ومحبة تتسع آفاقها حتى تشمل الكون بكل ما فيه من صور وحياة وانطباعات .

وتجليته كمنهج على عملى إيجابى ، رسالته أنه يتطور بالحياة إلى الكمال الذى هو سر الخلق وغايته ، كمال الإنسان الذى باهى به الله ملائكته ، وتلقى من ربه كلمات المعرفة والحكمة ، وعلمه الأسماء كلها ، وسخر له مافى السموات والأرض .

الكمال الذى شرطه أن يتفكر فى ملكوت السموات والأرض وأن يرى آيات الله فى الآفاق وفى نفسه ، حتى يتبين له أنه الحق .

الكمال الذى قاعدته أن يحيط علماً بأسرار الطاقات الكونية كافة ، وأن يسخر الطاقات لرفاهيته وسعادته وقوته .

فكل عمل عبادة ، وكل معرفة طاعة ، وبذلك يصبح العمل واجبا مقدسا لأنه طريق الإنسان إلى التطور وإلى القوة وإلى إبراز القوى المودعة فى كل ذرة من ذرات الكوكب الأرضى .

وبذلك يمشى التفوق العلمى جنباً إلى جنب ، مع التفوق الروحى ، وبهذا التكامل والتوازن بين القوتين ، يوجد الإنسان المثالى ، الذى يحكمه قانون خلقى ، وتسيره قوى إيمانية ، وتسدد خطواته الحضارية ، عقيدة ربانية لاتعرف البغى ولا العدوان ولا تجنح إلى الشهوات والأهواء ، ولا تميل إلى تطرف أو انحراف .

وبهذا التوازن يرتفع الإنسان بعبوديته المطلقة لله ، إلى أفق الحرية المطلقة فى الحياة .

فعبد الله لا يستعبد لغير الله ، ولا يذل لسواه ، ولا يملك مصيره وقدره إلا رب الوجود وسيده .

إنه لعبد قد تحرر ضميرا ووجدانا وشعورا وإرادة وخلقا ، فلا تسترقه قوة ، ولا تستعبده نزوة ، إنه لفوق الأهواء والشهوات ، وفوق الإغراء والنزوات ، إنه الإنسان الذى اصطنعه الله لنفسه ، وأراده لخلافته ، وأرسل الرسل لهدايته .

إنه الإنسان الذى تحققت فيه الرسالات السماوية ، وبرزت فيه الأخلاق الربانية ، وأصبح على بصيرة واعية ، وطريق مضىء .

هذا الإنسان الكامل هو هدف التصوف الإسلامى ، وهذه الإنسانية الظاهرة الصاعدة هى رسالة المنهج الصوفى .

وإذا قلنا المنهج الصوفى ، فإننا نقصد أو نعبر عن المنهج القرآنى ، فالتصوف هو ذروة الكمال فى كل كلية أو جزئية ، جاءت بها التعاليم الإسلامية .. هو الخط الأعلى فى أفق العقيدة الربانية ، هو الأخذ بالعزائم فى كل سنة وفريضة وفى كل دقيقة ورقيقة .

هو مقام الإحسان فى المنهج الإسلامى ، مقام الذى يعيش فى إحساس حى ملهم مبصر ، إحساس من يرى الله فى كل شىء فى الوجود ، وفى كل عمل فى الحياة ، وفى كل خاطره من خواطر النفس والفكر .

إحساس حى ملهم مبصر ، يشمل كل القوى الظاهرة والباطنة وينيرها ويوجهها إلى الله .

إحساس حى ملهم مبصر لا يمكن أن يصاحبه ظاهر الإثم أو باطنه ، جلى الشرك أو خفيه ، لأنه يرى الله ، ومن يرى الله يعيش فى جوه ، وفى كلماته ، وفى نوره وفى رعايته ، بل يعيش مستمدا من الله قوته وتأييده وتوفيقه . وما لا تستطيع الكلمات أن تعبر ، ومالا يستطيع الفكر أن يصور ، وإنما حسب الإنسان أن يسبح فى هذا الأفق ، وأن يتصور قداسته وطهارته وعظمته وما يمكن أن يصل إليه ويظفر به .

والقرآن الكريم كرسالة هداية للعالمين اتسعت تعاليمه للناس جميعا ، كما اتسعت آفاقه للعزمات كافة ، على اختلاف طاقاتها وقواها .

ومن ثم جاءت هذه التعاليم لتجعل من الإيمان درجات ومقامات ، درجة فوق درجة ، ومقام فوق مقام .

المسلمون ، والمؤمنون ، والعابدون ، والقانتون ، والمسبحون ، والمتقون ، والمجاهدون ، والمحسنون ، والصديقون ، صفات لمقامات ، وتصوير لطبقات أهل القرآن فى سيرهم فى الطريق الصاعد إلى الله ، وفى الطريق المتطور إلى الكمال الإنسانى.

والتصوف هو السير فى هذا الطريق المضىء الطويل حتى يصل إلى ذروة كماله ، فيصبح صوفياً ربانيا .

والطريق الصوفى هو فى أساسه خطه منهجية فى حياة الروح والعبادة ، وخطه منهجية فى حياة العلم والعمل .

خطة شاملة يحتشد فيها الفكر والشعور ، والقلب والحس ، والظاهر والباطن ، لتعمل هذه القوى متكاتفة . فى طاقة حيوية هادفة ، تمدها شحنة إيمانية منطلقة متفتحة تبنى كل شىء فى بنية الإنسان الكامل ، كما تبنى كل شىء فى بنية الحضارة المتطورة .

فالصوفية هم طليعة الفكرة الإسلامية ، وأهل العزيمة والقوة فيها ، وهم قوم دربوا طاقاتهم الروحية وصقلوها حتى بلغت كمالها ، ثم إتجهوا إلى الله بهذه القوة العليا يتعرفون عليه سبحانه ، ويتصلون به ، ويستمدون منه ، ويهتدون بهديه ، ثم أنطلقوا إلى الحياة أقوياء أعزة ، يبشرون بالخير ، ويحمون الحق ، ويقيمون موازين العدل ، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، ولم تغفل عقولهم عن التفكير والابتكار والتجديد ، ولم تقف أيديهم عن بناء صروح العزة والقوة ، ولم تنفصل مشاعرهم فنون الحضارة وألوانها

ولسائل ان يسأل : كيف تخصص المنهج الصوفى فى أفق الحياة الإسلامية وتميز بهذه الخصائص ، وبتلك الرسالة ، بل لقد أصبح هذا السؤال من الأسئلة الحائرة الطائرة فى أفق الجدل الذى يدور حواره حول التصوف والصوفية

والجواب مع هذا واضح مبين ، لقد كانت المعانى الصوفية متلألئة مضيئة فى آيات القرآن ولحنه ، وكانت [illegible] فى سيرة الرسول وهديه ، وكانت جلية مبينة فى أعمال الرعيل الأول من بناة الفكرة الإسلامية وأبطالها .

ثم حدث الانفصال التاريخى ، بين المجتمع الإسلامى ، والهدى القرآنى ، والسنة النبوية ، وإنحلت وحدة الفكر الإسلامى الموجه الهادف ، وتمزقت الهالات الروحية الملهمة ، التى كان سرادقها المنير يضم بين جنباته المسلمين كافة .

وبزغت مذاهب ، ونجمت دعوات ، وفتحت الدنيا أبوابها للمسلمين الفاتحين الظافرين ومشى الترف والبذخ واللهو إلى حياتهم ، وظهرت ارستقراطية مادية متكبرة ، وحكومات استبدادية جائحة

فتنادى المؤمنون بالمثاليات الإسلامية بالجهاد ، وقاموا لله بكلماته ، ووقفوا فى وجه هذا التحلل والتحول المنحدر ، مبشرين ومنذرين ، وداعين إلى الله ، وشيئاً فشيئاً أصبح هؤلاء الدعاة الأتقياء مدرسة ربانية ، وأصبح لهذه المدرسة إسماً اصطلاحيا ، عرفوا به تاريخيا ، أو كما يقول العلامة ابن خلدون : « اختص المقبلون بأنفاسهم على الله باسم الصوفية » .

وكان التصوف فى هذا الدور : فى خلال الأيام الأولى للخلافة الأموية ، كان ثورة حية أبية على الارستقراطية الحاكمة ، والرأسمالية المترفة ، ودعوة عالية هادفة للعودة

إلى روح القرآن ونوره وحكمه ، وهدى الرسول وخلقه وأدبه ، وكان لهذا الدور رجاله ومنهجه .

ثم كان الدور الثانى للتصوف فى فجر الخلافة العباسية ، وكانت رسالته فى هذا الدور ، رسم المنهج العلمى لوحدة الفكر الإسلامى الذى أخذ فى التحلل والسبح وراء قضايا غامضة منفصلة عن خطو الحياة ونشاطها وتطورها .

كان التصوف فى هذا الدور أيضاً ثورة على علم الكلام الذى أسرف وجمح وانحرف ، وأغرق نفسه فى فلسفة جدليه تدور حول الذات والصفات وشرائط الإيمان والقضاء والقدر وما إلى القضاء والقدر .

وثورة على الفقهاء الذين مزقوا وحـــدة الفكر الإيمانى ، وتمردوا على بساطة الإسلام وفطرته ، فأحالوا الفقه إلى جدليات وتفريعات واستنباطات ، مغرقة فى الخيال مسرفة فى الجموح .

وأغرقوا مراكبهم فى خصومات مذهبية حادة ، وصلت إلى حد القتل والاغتيال .

لقد تحول الفقه عن رسالته الحية النامية المتطورة ، فبدلا من أن يتحدث عن حق الفرد وواجبات الحاكم ، وحرية الإنسان ، ونظام الشورى ، والعدالة الاجتماعية ، والتكافل الاقتصادى واتجه إلى إرضاء القوى الحاكمة ، فترك الجانب العملى الحى من الوجود الإنسانى ، إلى الجانب المتزمت الخيالى ، الذى لا يعيش معنا على كوكبنا .

وثورة على الاسرائيليات التى مشت إلى الأحاديث النبوية تصنع لها وتدس عليها بدعا من القول ، وزوراً من التفكير .

كما مشت إلى تفسير القرآن ، تلوى به عن هدفه وتنحرف به عن هديه ، وتدخل به فى تيه رهيب ، من سفسطة لفظية لا تثبت إفهاماً ، ولا تشبع نورا .

وإذن فقد كان التصوف فى كل دور من أدواره عملا ايجابياً لحماية العالم الإسلامى والابقاء على مثله مضيئة حية ملهمة ، واستطاع التصوف وحده أن يصمد فى وجه كافة التيارات المتحركة الهابطة ، وأن يحفظ للفكر الإسلامى وحدته وفاعليته وللخلق الإسلامى طهارته وإيجابيته .

ثم مشى الوهن إلى الأمة الإسلاميه ، وأخذت مصابيحها تنطفىء مصباحاً فمصباحا ، وأخذت حركة الحياة فيها تجمد ، وحرارتها تخمد ، وطغت عليها رجعية جاهلية ، وبغى على أرضها وتفكيرها استعمار صليبى أسود وحقود .

ودخل العالم الاسلامى فى التيه الطويل ، التصوف وب أصاما أصاب الاسلام ، ودخلت فى التصوف أمم من الناس من كل لون ونحلة .

وابتدأ بعض الدخلاء يفلسف التصوف وينحرف به ويضيف إلى معارفه الوانا من الفلسفة اليونانية الاستشراقية .

وابتدأ بعض الدخلاء يهبط بالتصوف إلى العامية والجمود ويملأ آفاقه بعادات وطقوس فى السلوك خنقت روحه واطفأت مصابيحه.

وابتدأت الكلمات الصوفية الحية ، التى صنعت القوة وألهمت العزيمة ، وربت رجالا وهداة ، تفقد بريقها ، ويتغير لونها ومعناها فى أفواه أقوام انتسبوا إلى التصوف زورا ، واصطنعوه مسابحا وأثوابا ، ورقصا وصياحا ، وظنوه زهدا وعزلة وضعفا ودروشة ساذجة .

ورسالتنا اليوم أن نخرج التصوف من التيه التاريخى المظلم الذى اندفع إليه ، أو دفع به إليه .

وذلك موضوع كلمتنا القادمة إن شاء الله ؟